

الرواية الجزائرية بين خطاب الهوية وسلطة اللغة الكولونيالية رواية لبيك حج الفقراء لمالك بن نبي أنموذجا

Algerian Novel under the Discourse of Identity and the Colonialism Hegemony

The novel "Lebek Hajj of the Poor" by Malik BIN NABI as a Model

نجوى منصوري¹ جامعة باتنة 1 nejouan@gmail.com

تاريخ الاستلام: 20-02-2019 تاريخ المراجعة: 01-06-2019 تاريخ القبول: 06-06-2019

ملخص:

يحاول هذا البحث الإجابة عن تساؤل متعلق بخطاب الهوية في علاقته باللغة الكاتبة والانتماء الأيديولوجي لصاحبها في ظل الهيمنة الكولونيالية، ويهدف إلى مقارنة ميكانيزمات الكتابة الروائية الجزائرية باللغة الفرنسية في محاولتها تفكيك وهدم سلطة الآخر الثقافية وبعث قيم الهوية الإسلامية من خلال رواية "لبيك حج الفقراء".

ويخلص البحث إلى أن الرواية تكشف حكاية ثقافية تخيلية لمجتمع باحث عن هويته رافض لهيمنة الفعل الأجنبي، و تلبى حاجة مالك بن نبي في طرح فكرة الهوية الجزائرية المتجذرة في تراث الحضارة الإسلامية والمنفتحة على الآخر تحت ضوء "الثقاف".

الكلمات المفتاحية: ثقافة، هيمنة، هوية، قيم، تراث، كتابة

Abstract:

The research attempts to answer a query related to the discourse of identity in its relationships with the writing language, and the ideological belonging of its owner under the colonialism hegemony. It seeks to approach of Algerian writing novels mechanisms in French language when it endeavor to disassemble and destroy the other's cultural authority and resurrect the Islamic identity's values through the novel "Lebek Hajj of the Poor"

The research concludes that the novel reveals a cultural imaginary story of a community looked for its identity, and refuses the hegemony of the foreign act, meets the need of Malik BIN NABI in his putting up the idea of the Algerian identity rooted in the heritage of Islamic civilization, and extroverted to the other under the light of "Acculturation".

Keywords: Culture; Hegemony; Identity; Values; Patrimony; Writing

¹ - المؤلف المرسل

مقدمة

ينقاد العقل الإنساني العارف أو الباحث في المعرفة، بأواصر امتداده و تماهيه في القيم الإنسانية المتعالية فيه ثقافيا وحضاريا، فيخضع لهيمنتها وسلطتها ويدافع عنها ويقاوم التيارات المعادية لها التي تعمل على طمسها ومحوها، كما يرفض القيم البديلة المستحدثة التي تقزمها وتلغي فاعليتها.

يظهر ذلك في شكل كتابات ذاتية و تمثلات فكرية وعقدية وتخيلية... لغوية، وهو ما يؤسس لخطاب لغوي عقلي ثقافي ممتنع يفضي بالشكل الذي يملك القدرة على احتواء هذا الممتنع ويضم حقائق معرفية وتوجهات أيديولوجية لا تبوح بها اللغة إلا بفعل التلقي والتأويل..

ومن الخطابات الذاتية التي تمثّلت لغة الفكر القلق رواية مالك بن نبي² (لبيك حج الفقراء: Pèlerinage de pauvres) بدء من عنوانها مرورا بالسرد وتقنياته، وصولا إلى المعنى الذي يلبي حاجة المفكر مالك بن نبي في طرح فكرة الهوية الجزائرية المتجذرة في تراث الثقافة والحضارة الإسلامية. وتعدّ الرواية يتيمة الأدبية التي كشفت ذائقته الإبداعية وامكاناته في الكتابة السردية، ولعلها من الأعمال الأدبية البكر التي طرحت مسألة لغة الآخر (المستعمر) وهوية الأنا (المستعمر).

فبالنظر في مختلف الأعمال الأدبية المكتوبة بلغة المحتل وعلى رأسها الرواية نجدنا نستشكل قراءة النص وفق تصور ثابت حول هوية هذا النص بين لغته، وهوية كاتبه، ومكان تأليفه أو نشره، فيتبدد بين أيدينا، وتتبدد محاولة قراءته أو تلقيه

² -لمحة عن الأديب والفيلسوف مالك بن نبي: ولد المفكر و الأديب الجزائري "مالك بن نبي" عام 1905م بمدينة قسنطينة، انتقل في تعليمه بين تبسة و قسنطينة، والتحق بمدرسة قسنطينة الثانوية التي تحولت فيما بعد إلى ما يسمى بالمدرسة الفرنسية الإسلامية، وهناك غرس فيه حب الأدب و نمت فيه ذائقته الأدبية و البلاغية. قرأ بن نبي روايات غربية لمؤلفين مختلفين، كما اهتم بالأدب العربي الحديث و أعجب بالأدباء المجددين الذين انفتحوا على الثقافة الغربية ولكنهم حافظوا على هويتهم العربية، قرأ لجبران، و حافظ إبراهيم و الرصافي، والمنفلوطي، وبهم صقل موهبته ... جال الأقطار محاضرا في الفكر و النهضة. وتوفي رحمه الله عام 1973، ورثته الأمة الإسلامية في المشرق و المغرب، ترك رصيда معرفيا ثريا أصبح مرجعا حضاريا لعدد الدول الإسلامية و تمثل في تأليفه التيتزيد عن العشرين كتابا ما بين (1946 و 1973) منها: الظاهرة القرآنية (1946)، شروط النهضة (1947)، وجهة العالم الإسلامي (1945)، الفكرة الإفريقية الآسيوية (1956)، مشكلة الثقافة (1957) فكرة كومنولث إسلامي (1958)... (عبادة، 1984)

النقدى، وهنا يحضر التساؤل حول امكانات الخطاب الثقافى الجزائرى باللغة الفرنسية فى صورته العامة، والرواية المكتوبة باللسان الفرنسى فى صورته الخاصة على أن يعكس قلق المفكر الباحث عن هويته بروح القيم الدينية والثقافية والحضارية، المقاوم للهيمنة الثقافية الدخيلة من جهة، والخاضع لسلطة لغة وثقافة المحتل من جهة ثانية .

وفى ضوء هذا التصور، انبنت تمفصلات البحث على محيط ثلاث دوائر استشكالية دون التعمق نحو مركزيتها، وفق منهج سوسيوثقافى وتحليل الخطاب السردى، وتمثلت فى الآتى:

أولاً: الكتابة بالفرنسية ومقاومة الهيمنة الكولونىالية وفق مبدأ المثاقفة :

يعد التسلط الثقافى للاحتلال الفرنسى إحدى مظاهر الغزو أو الهيمنة التى فرضها العقل الغربى على الشعوب المستضعفة. ولعل فرض اللغة والأيدولوجيا وأنماط التفكير وطرق العيش كانت سبله لإرساء معالم ثقافته وبسط نفوذه، وهو ما أدى إلى تكوين ثقافة جديدة كانت فى مجملها صورة من ملامح الثقافة الغربية. وفى ظل هذه الوضعية المزقّية، تفتنت عقول جزائرية لمساعى وغايات هذه الثقافة السائدة بفعل السلطة السياسية والعسكرية فى تحقيق المركزية الغربية وإشعاعها الحضارى والثقافى على شعوب العالم، هذا التفتن وُلد نوعاً من الثورة الدفينة التى تفجرت بأقلام جزائرية سخّرت لغة المحتل لمقاومة الانحلال والتماهى الثقافيين فى المجتمع من جهة، ولكشف أبعاد التسلط الحضارى والثقافى من جهة أخرى، وهو ما شكل نسقا مضمرًا فى الخطاب الثقافى الجزائرى باللسان الفرنسى ومنه الأدبى.

ويمثل المضمّر الثقافى فى الخطاب الإنسانى كل محظور فى الثقافة السائدة؛ أى كل حالات الرفض أو المعارضة؛ وهو نسق خطابى يؤدى وظيفته ضمن إطار نصى يناقض فيه نسقا خطابيا ظاهرا أو سائدا أو معلوما، وهو ما يلخص حيل الثقافة فى تمرير أنساقها تحت أقمعة ووسائل خفية، وأهم هذه الحيل هى الحيلة الأدبية (الجمالية) (الغدامى، 2014، صفحة 77). وفى مقابل هذا المحظور الثقافى نجد مضمّر التواطؤ وقبول السائد فى ظل ثقافة المعارضة، أو مضمّر الانتماء الجماعى أو الإنسانى فى ظل ثقافة التقوقع ورفض الانفتاح الإيجابى على ثقافة أو حضارة إنسانية تجمع

القوميات. وفي ذلك يقول عبد الله الغدامي "المحظور ليس منعا أو حظرا في جميع حالاته، بل هو في حالات التعاقد الاجتماعي خاصة، انتماء "عفوي" لنظام أخلاقي يؤسس على التواصل الاجتماعي بكل واجهاته الثقافية، أو هو التنازل الطوعي عن جزء من الحرية للاستمتاع بحالات إنسانية مضافة تفتح الذات على ما هو أبعد من ملكوته الضيق" (بنكراد، 2013، صفحة 09) وهذا رأي يفسر ما حدث أثناء فتح الجيوش العربية الإسلامية لبعض الأمم والأمصار ومنها منطقة شمال إفريقيا التي شهدت مقاومة ضئيلة من سكان المنطقة للفاتحين الدعاة لدين الله تعالى واللغة العربية والثقافة الإسلامية، بحيث تنازل الفرد الأمازيغي طوعا للدين الإسلامي الحنيف، وقبل الإنسان العربي وتعايش معه، وتعلم لغته التي فتقت ذهنه على علوم العربية ومجالاتها وعلوم القرآن والحديث وغيرها، وفتحت له أبواب العلوم والمعارف المختلفة .

ولذلك تسهم الذات المثقفة المفكرة في تعضيد الثقافة السائدة والمهيمنة أو في إعادة تشكيل ثقافة مضادة من حيث نوعها وهويتها حتى وإن كان التعبير عن تلك الثقافة في أشكالها الكتابية المختلفة بلغة موحدة تجمعها ظاهريا بالثقافة الأولى. ومثال ذلك الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية. ويطفو هنا معنى تحاور الثقافات خارج إطار الهيمنة والتسلط والاحتلال ذلك لأن الثقافة: "مركب متجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبير والإبداعات التي في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميكيتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء" (الجابري، 1994، صفحة 213). فلا يمكن لمجتمع معين أن يحقق تواصلًا حضاريًا ما لم يُعرّف بثقافته (التي تمزج ماضيه بحاضره) من خلال تقديم أشكال هذه الثقافة بلغته الأم أو بلغة مجتمعات أخرى يمكن أن تصل ثقافته من خلالها إلى العالم.

وتصبح القومية أو الكينونة (هوية الأنا)، وفق هذا التصور، جوهر الثقافة المتحاور مع ثقافات الآخرين، ويصبح المساس بها أو محاولة تنحيتها أو استبدالها بثقافة جديدة تتنافى وقيم الهوية، وتتعارض ومفاهيم الثقافات (أو المثاقفة)، نوع من السيطرة وفرض الهيمنة وإلغاء الخصوصية، ولعله المظهر الثقافي الذي حققه

الاحتلال الفرنسى للجزائر فى محاولته طمس هوية الجزائريين وردم خصوصيتهم وقوميتهم ومسح تاريخهم وتراثهم.

1- مفهوم المثاقفة:

المثاقفة مصطلح يعود إلى علماء الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع تحت مسميات عديدة أهمها: (Acculturation) بمعنى المثاقف على تعدد ترجمات المصطلح و (interpénétration des civilisations) بمعنى تداخل الحضارات و (ransculturation) بمعنى التبادل الثقافى، وتحيل هذه المصطلحات فى مجملها إلى صفات التعايش وتلاقح الثقافات فى كونها ظاهرة إنسانية واجتماعية متعددة الأبعاد، وذات علاقة بتطور الأفراد والمجتمعات فى بحثهم عن أسباب المعرفة ومناهل العلوم والأبحاث والتجارب، ولذلك تمثل فى مجملها اشتراكا إنسانيا من أجل تحقيق تطور يشمل مجالات متعددة، وهذا الاشتراك ينفي فكرة الهيمنة والتسلط أو المركزية، ويثمن الجهود الفردية والجماعية تحت غطاء الحضارة العالمية. ومن النتائج الإيجابية التى يعنى بها الاشتراك الإنسانى ذلك التبادل الثقافى بين الشعوب المختلفة والذى يثمر تحولات تطرأ على المجتمعات البدائية نحو المعرفة والتأقلم الثقافى (المناصرة، 1996، صفحة 74).

وهذا المثاقف الذى يعنى عمليات التبادل الفكرى والمثاقف بين مختلف الثقافات، يناقض المعنى الإمبريالى الذى يحدده بالعلاقة بين ثقافة متفوقة وأخرى متخلفة، والذى تشكل فى إطار العلاقة بين الشعوب المستعمرة والشعوب المستعمرة، وهو ما يعنى أن المثاقفة تخفى موقفا إمبرياليا (الزغبى، 2007، صفحة 255).

وإذا تعلق الأمر بالبحث الأدبى فإن الناقد وهو يبحث عن سمة المثاقفة بين نصين أدبيين، فإنه يكشف عن فكرة التأثير والتأثير بينهما من حيث اللغة والموضوع وهو ما يلتقى وأبحاث البنيويين فى مفهوم التناس عند جوليا كريستيفا والتعالق النصى عند جيرار جنات أو الحوارية الباختينية .

2- خطاب الثقافة ومسألة الهوية:

إن الحديث عن الثقافة الجزائرية يقودنا إلى نوعين منها: الثقافة الشعبية التي تجلت في أشكال الموروثات الشعبية، والتي كانت في مجملها معادية ومقاومة للاحتلال الفرنسي وهيمنتها الفكرية والثقافية التي فرضت لغة الآخر الأجنبي، وطرق تفكيره، وسبل عيشه... وغيرها، وربما هو مجال يسعه البحث في هوية الخطاب الشعبي في ظل الهيمنة الكولونiale. أما النوع الثاني فهو الثقافة العالمية وهي ثقافة تعرية الواقع الاستعماري والطرح الإيديولوجي للثقافة المهيمنة بالقوة الاحتلالية العسكرية. وقد تبنت هذه الثقافة أنساقا تعبيرية تطرح إشكالية العلاقة بين الفكر أو المعرفة والكتابة بلغة الآخر المهيمن .

من وراء هذا الطرح الثقافي تسلت كتابات فكرية وأدبية لمجموعة من الوطنيين حلت محل مجموعة من المثقفين الذين أيدوا الطرح الثقافي الاستعماري، فعملت على إلغاء الصورة الفولكلورية للإنسان الجزائري الفخور بوطنيته الفرنسية الزائفة، وأعلنت قطيعتها مع لغة وثقافة المستعمر، وفجرت الثقافة المعادية أو الضدية لممارسات الثقافة السائدة أو المهيمنة.

ومن كتابات هؤلاء، أعمال المفكر الإسلامي مالك بن نبي التي شكلت خطابا ثقافيا قلقا في بحثه عن الهوية الجزائرية المتجذرة في تراث الحضارة الإسلامية، وفي مقاومته للهيمنة الكولونiale والانتصار للقيم الوطنية، وأضمرت نسقا مفككا لخطاب الهيمنة والتسلط الثقافيين. يقول مالك بن نبي: "الثقافة هي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاق الإنسان وفلسفة الجماعة أي معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية، وعندما يؤذن فجر إحدى الحضارات"(بن نبي، د ت، صفحة 123).

ويجمع مالك بن نبي بين الثقافة الشعبية والثقافة العالمية فيقول: "تشتمل الثقافة في معناها العام على إطار حياة واحدة، يجمع بين راعي الغنم والعالم، بحيث توحد بينهما دواع مشتركة، وهي تهتم في معناها الخاص بكل طبقة من طبقات المجتمع فيما يناسبها من وظيفة تقوم بها، وما لهذه الوظيفة من شروط خاصة، وعلى

ذلك فإن الثقافة تتدخل في شؤون الفرد، وفي بناء المجتمع وتعالج مشكلة القيادة فيه، كما تعالج مشكلة الجماهير" (بن نبي، د ت، صفحة 127).

ويتساءل القارئ في ظل استشكاله الكتابة باللغة الفرنسية في مقاومتها لمظاهر الاحتلال الفرنسي، عن أولى المفاهيم التي تؤدي معنى المثاقفة أو محاوره الآخر بلغته مع الحفاظ على الهوية الذاتية؛ ولعل البحث في الأنساق المعرفية المجسدة لفكر مالك بن نبي تُجَلِّي صور قبول الآخر ثقافيا من جهة (بمعنى الكتابة بلغته) ورفض هيمنته وتسلطه ثقافيا من جهة موازية (من خلال فرض فكر مخالف وأيديولوجيا معادية ومعرفة إنسانية مع تبجيل التراث والتاريخ القومي...)، وهنا وجدنا مالك بن نبي يكتب باللغة الفرنسية ويحقق مبدأ الاختلاف من خلال كتابات أدبية مثلتها رواية لبيك حج الفقراء (Lebbeik : Pèlerinage de pauvres) و كتابات فلسفية أشهرها: "الظاهرة القرآنية" (le phénomène coranique) و"شروط النهضة" (Les Conditions de la renaissance)... فالكتابة بلغة الآخر المحتل لا تعني قبول هيمنته الثقافية لدى المقاومين لهذه الفكرة، فلا يمكن بحال من الأحوال أن نقول إن ثلاثية محمد ديب "الدار الكبيرة" و"الحريق" و"النول" كتبت بالفرنسية لتكون كتابة الثقافة الفرنسية، وهي تصور حياة الجزائريين وعمق معاناتهم من الجوع والفقر والقهر خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وتصور نضال الفرد الجزائري (خضر، 1967، صفحة 151). يقول مترجم رواية "الدار الكبيرة": "نعد هذا الكتاب رواية عربية مترجمة إلى اللغة الفرنسية، لا لأن أبطالها عرب، ولا لأن أحداثها تجري في أرض عربية، ولا لأن مدارها على الآلام التي يتحملها العرب في الجزائر، ولا على الآمال التي تجيش في صدورهم، بل أولا وقبل كل شيء لأن العقل الذي أنجبها عقل عربي له أسلوبه الخاص في كل شيء؛ في النظر إلى الأمور، في الإحساس بالمشكلات، في معاناة الحياة، بل حتى في تصور الزمان والمكان" (ديب، 1970، صفحة 04).

ومن الهوية والانتماء الثقافييين، ننتقل إلى محيط الدائرة الاستشكالية الثانية المتعلقة بالنص الروائي المكتوب باللسان الفرنسي من حيث كونه خطابا يضمّر نسق المقاومة والنضال.

ثانيا- النص الروائي باللسان الفرنسي ونسق المقاومة:

لا يحيل هذا العنوان إلى رواد الكتابة بالفرنسية في الجزائر ممن كان لهم الولاء المطلق للفرنسية والفرنسيين، وحظوا بالمكانة والجائزة، وإنما يحيل إلى من تبنا الكتابة بالفرنسية لأجل مقاومة الفرنسية هوية وقوة عسكرية وسياسية وسلطة ثقافية، ونشر الوعي القومي في الذات الجزائرية، وصولا إلى هدم فكرة الاحتلال وهدم سلطة المركز على الهامش في مظهرها السياسي والاجتماعي والثقافي.

ذلك أن بعض الأعمال الروائية الجزائرية باللغة الفرنسية صورت الظاهرة الكولونيالية من خلال الفرد الجزائري في انتمائه للفرنسية لغة وهوية تحت سلطة المحتل سياسيا وثقافيا، وقد أرادها (الروايات) أصحابها أن تكون نوعا من الكتابات التي تعترف بالوجود الفرنسي في الجزائر وتدافع عن ذلك، ومرد ذلك كونهم من وجهاء المجتمع الذين أعلنوا الولاء لفرنسا، و من خريجي المدرسة الفرنسية التي حاولت إدماج المتعلم الجزائري في الثقافة والهوية الفرنسية، واشتغلت على أن يكون فردا فرنسيا، ونذكر منهم: محمد ولد الشيخ (ould cheikh) من خلال روايته (مريم في النخيل palmesMyriem dans les) سنة 1936، وماري لويس عمروش (Marie- Louise amrouche) في روايتها (الياقوتة السوداء jacinthe noire) سنة 1947، وجميلة دباش (Djamila debèche) في روايتها (ليلي فتاة جزائرية Leila jeune fille d'algérie) ورابع زناتي (Rabeh zenati) صاحب رواية (Bou el nouar, le jeune algérien) سنة 1945، فقد تغنى هؤلاء بفرنسا وتمسكوا بانتمائهم إليها لغة وهوية وحضارة، ونظروا إلى الوجود الفرنسي في الجزائر على أنه إصلاح للبلاد وقضاء على الوحشية والبدائية. ولعل من صور دعوتهم إلى فرنسة الجزائريين، الاعتراف بفضل فرنسا المادي والمعنوي، والافتخار بالاحتماء تحت قوة حضارية كبرى في العالم (جبور، 2013).

ولذلك تكون قراءة النص المكتوب باللغة الفرنسية تحت مجهر الحرية والتمرد والانعتاق، منطلق معرفي في محاولة فهم المنتج الأدبي الجزائري وغاياته الثقافية. والسبب يعود إلى هيمنة الفرنسية كلغة رسمية في مجالي الثقافة والتعليم، ومحاولة

فرض فكرة المحتل في التجنيس وتجريد الجزائري من قوميته وعربيته ودينه الإسلامي (درار، 1984، صفحة 05) حدث حينها انحسار اللغة العربية في الكتابات ومدارس تعليم القرآن الكريم، وفرضت الفرنسية في التعليم المدرسي، وشاع استعمالها في الإدارات والمؤسسات العامة والكتابات الثقافية في الجرائد والمجلات والكتب... وبذلك شاع تداول اللغة الفرنسية في الأوساط التعليمية والثقافية وحتى الشعبية .

فإذا كان المحتل قد نجح في تحقيق ذلك إلى حد ما، إلا أنه فشل في محاولته فرنسة العقول الجزائرية العالمة (مرتاض، 1983، صفحة 17) والتي تفتنت لخطته في فرض سيطرته الكاملة سياسيا وعسكريا وثقافيا... ولذلك لم تنجح اللغة المهيمنة في تجريد الكثير من المفكرين والسياسيين والثوريين والكتاب والأدباء من أهدافهم ومقاومتهم لوجود المحتل بلغته.

فمن صور التمرد اللغوي الذي أظهره بعض الروائيين في كتاباتهم باللغة الفرنسية إضمار انساق نصية تمثّل حالات القلق والرفض تجاه مظاهر الفقر واليأس والاضطهاد ومحاولات دمج الفرد الجزائري وطمس هويته وغيرها من مشاهد الوجود الفرنسي في الجزائر، بحيث تشكّلت لغة انزياحية لا يمكن أن يكتبها الفرنسي، لأنها تمثل لغة المتمرد عن الفرنسية وفي ذلك يقول مالك حداد: "الفرنسية منفاي"، ولعل أشكال تمرد النص الفرنسي الجزائري عن اللغة الفرنسية يتلخص في قوله: nous écrivons le français , nous n'écrivons pas en français (جبور، 2013، صفحة 77). وهو أسلوب تعبيرى فيه الكثير من العمق والانتصار للذات الجزائرية، فقولُه نحن نكتب الفرنسية ولا نكتب للفرنسية، أي أنه امتلك اللغة الفرنسية وطوّعها لكتاباته الأدبية حتى تخدم رؤاه الفكرية وتوجهاته الأيديولوجية، ولا يكتب الفرنسية كونها لغة الهوية والجنسية الفرنسية والانتماء للثقافة والمجتمع الفرنسيين، وهو تعبير يختزل أسلوبية الكتابة الجزائرية باللسان الفرنسي في معاداتها للثقافة الفرنسية المهيمنة .

هذا النوع من الكتابة الأدبية يدخل في ما يسمى بـ"أدب المقاومة" من حيث إضمار مقاومته للمحتل تحت نسق لغة المحتل نفسه، يقول مولود معمرى: "إنني على ثقة

أكيدة بأن المناضل هو الذي يطلق النار على الآخرين، وفي الإمكان أن نطلق العيارات النارية بواسطة القلم، هذا حال الكاتب "(بامية، 1982، صفحة 137). ولعل سبب هيمنة النسق اللغوي باللسان الفرنسي على هذا النوع من الأدب النضالي يعود إلى مركزية لغة الغرب، أي اللغة التي يصل صداها إلى العالم، وهو يحمل معاناة شعب من شعوب الهامش بفعل سلطة الاحتلال، وبالفعل وصلت حملات الأدب النضالي باللغة الفرنسية إلى القراء في دول العالم ومنهم الفرنسيون أنفسهم(حنون، 1986، صفحة 99).

ولعل أولى الروايات التي عدها الكثير من الدارسين، إلى جانب رواية "إدريس" لعلي الحامي، جسر تحول في الكتابة الأدبية الجزائرية بالفرنسية، رواية "لبيك حج الفقراء" التي رسمت اتجاهها جديدا يكشف الوجه الحقيقي للهيمنة الثقافية الفرنسية، ومثلت الأدب الثوري في المرحلة الكولونيالية لتحررها من سيطرة اللغة الفرنسية، وثورتها على حملاتها الثقافية، ومرجعياتها الفكرية والأيدولوجية التي سعت إلى تدمير العقل الجزائري، وطمس مرجعياته الثقافية في علاقتها بالدين والتراث والتاريخ والهوية... وهي السمة التي جمعت أعمال مالك بن نبي الفكرية والأدبية ونتاجاته الدعوية في نشر الوعي واستعادة القيم الأخلاقية وتعاليم العقيدة الإسلامية، وحصر آفات الجهل والتشتت والانبهار بالغرب وغيرها من مظاهر الذوبان في الآخر، والتي أسهمت بشكل مباشر في قتل روح المجتمع الجزائري، وخضوعه للهيمنة الفرنسية.

وقد تمظهرت فكرة تحرر وانعتاق الذات الجزائرية في الرواية من خلال النسق المضمّن الذي تجاوز النسق اللغوي الظاهر؛ أي الكتابة بالفرنسية، وتجاوز النسق الثقافي الظاهر (السطحي) الذي يحيل إلى فكرة الخضوع الثقافي للآخر المهيمن في السرد.

ثالثا- التشكيل اللغوي في رواية "لبيك" وتفكيك الهيمنة الكولونيالية :

تعد "لبيك حج الفقراء" أول رواية جزائرية كتبت باللغة الفرنسية سنة (1947)، وقد ترجمها إلى العربية "زيدان خوليف"، ونشرت لأول مرة سنة (2009) عن دار الفكر بدمشق. تقع الرواية في مائة وستة وخمسين (156) صفحة أطل من خلالها مالك بن نبي على عالم الإبداع كتابة وقراءة. وهي رواية قصيرة في حجمها بسيطة من حيث بنائها السردى (بن نبي، لبيك حج الفقراء (دط)، 2009).

تجمع الرواية بين الوعي الفنى والجمالى للروائى من جهة، ووعى المثقف الجزائرى و نضجه الفكرى والسياسى والفلسفى من جهة ثانية، لذلك جاءت الرواية مثقلة بحمولات فكر حضارى عالم بقضايا الصدام الحضارى والثقافى بين الدول المستعمرة والدول المستعمرة، وما ينجم عنه من مظاهر التسلط والهيمنة والتهميش والقهر... وقد قدمها صاحبها في شكل حكاية بسيطة تُضمّر في حقيقتها قلقا فكريا، وقهرا نفسيا عاشه مالك بن نبي، وكأنني بالروائي المفكر يترجم هذا القلق في شكل كتابة أدبية يفهمها القارئ الجزائري البسيط حتى يشاركه هذا الهم والقلق، في مقابل كتاباته الفلسفية التي يرسلها إلى القارئ المثقف للمشاركة أيضا والنقاش بفكر ووعى عميقين .

شكّل النسق الثقافى المضمّر في رواية "لبيك حج الفقراء" محرّك السرد بلسان الراوى، وباعتد الأحداث الواقعة بين ما حدث بالفعل وما هو ممكن سرديا أو تخييليا، وصانع المشهدية التشخيصية بفواعل رمزية يسلبها ضمنا ولاء هذا المضمّر لفكر الرجل.

تبوح الرواية بمرتكزات الهوية الجزائرية الممّدة للتاريخ والتراث العربى الإسلامى، وتطفو مظاهر العادات والتقاليد المحلية ويوميات الإنسان البسيط والموروث اللغوى المحلى في المجتمع الجزائرى، كما تطفو الأجواء الإثنوغرافية (Ethnography)⁽³⁾ للفضاءات في مدينة عنابة. يقول المترجم: "وضع ابن نبي القارئ

³الإثنوغرافيا: فرع من فروع الأنثروبولوجيا (Anthropology) من أنثروبوس (Anthropos) وهو الإنسان، وتعنى، من حيث استخدامها، وصف أحوال الناس أو وصف الأعراق البشرية، إلى جانب وصف

أذناك وحتى اليوم في الأجواء التي كان يعيشها الإنسان الجزائري البسيط في كل مدينة جزائرية كعنابة، حيث مؤثرات النمط الأوروبي قد طغت على الجو العام" (بن نبي، لبيك حج الفقراء(دط)، 2009، صفحة 17)، ولعلها من إمكانات الكتابة الروائية في سعيها لتحقيق طموح يتعلق بتفكيك ونسف الفلسفة الوجودية الإنكارية التي كانت تُدرّس في المعاهد الفرنسية والتي استهوت فكر الفرد الجزائري المتعلّم والمنبهر بثقافة الغرب، والذي أعلن قطيعته مع مقومات الهوية الجزائرية العربية الإسلامية التي هي في رأيه لا تتواءم والانفتاح الجديد على العالم وثقافته، ولأن هوية المجتمع بحسب ما جاء في فكر مالك بن نبي تتأسس على نوعين أساسيين من ثقافة هذا المجتمع وهما: الثقافة العالمية والثقافة الشعبية، فقد اشتغلت روايته "لبيك" على فكرة تقديس قيم الثقافة الشعبية الجزائرية الموروثة والتي لها صلة وثيقة بمبادئ الدين الإسلامي الحنيف وأركانه، ومن هذه القيم الموروثة والمقدسة فريضة الحج، يقول: "إن أجيالا من الحجاج حملوا من مكة انطباعاتهم ومفارقاتهم وبذلك كوّنوا جزءا مهما من التراث الشعبي الإسلامي" (بن نبي، لبيك حج الفقراء(دط)، 2009، صفحة 40).

يحمل نص الرواية بساطة الطرح الفكري لثقافة التحضر في المجتمع عن طريق تصوير علاقة الفرد الجزائري الشعبي البسيط بمبادئ الدين الإسلامي وأخلاقيات الشخصية العربية المسلمة الأصيلة والممثلة في تقديس فريضة الحج وطقوس تأديتها، ومثّل هذا الطرح منحى إبداعيا له خصوصيته إذا ما قورن بالطرح الفلسفي الذي اعتاده قلم مالك بن نبي الفكري، وكأننا بالرجل ينقّس عن عقله أو فكره القلق برسم إبداعي تخييلي لا ينأى عما ترومه الرسالة التنويرية الإصلاحية التي يهتدي بها المجتمع من أجل الوصول إلى هدفه في استرجاع سيادته ودوره الحضاري الذي فقده.

شامل حياة الإنسان أو المظاهر الخارجية للثقافة التي يراها الملاحظ (السائح، العالم الأنثروبولوجي) فيدونها. وهي كلمة مأخوذة من اللفظ اليوناني (Ethnos) وتعني العرق والجنس. والإثنوغرافيا عمل ميداني تطبيقي يقوم على وصف الشعوب والسلالات، كما أنها عمل يقوم على رصد ثقافتها، وسلوكياتها الاجتماعية. (<https://ar.wikipedia.org>)

وتشكلت خصوصية هذا الطرح الفكرى فى شكله الإبداعى من خلال ميكانيزمات التشكيل التخيلى للخطاب بدءاً من عتبة العنوان، مروراً بتحويلات السرد عبر سيرة المعنى الذى يعلن عن مضمير تنويرى إصلاحى وتجاوز ثقافى.

1 سيرة المعنى من عتبة العنوان نحو إمكانات السرد:

تمثل عتبة العنوان نسقاً من المتعاليات النصية، يعمل توظيفه على إضاءة مساحة مكانية تقع خارج المتلفظ الإبداعى فى كليته، ويقدم نفسه للقارئ الذى يقوم بمقارنته أو تأويله بالنظر المععمق فى خصوصية الكتابة و قصديتها، و عن طريق فرضيات تقع خارج النص لها علاقة بفعل الإفهام أو الإيحاء، ويمكن لقارئ هذا النص ترصد المعنى الذى يخفيه نسق العنونة فى تشكيله اللغوى الظاهر والذى يخرج عادة عن المألوف والمتداول .

يقدم "ميشال فوكو" تصنيفاً مفهوماً للخطابات يستوعب خطاب العنونة، ويعتبره نوعاً من أنواع الخطابات الأدبية التى تظهر فاعليتها فى ثباتها وتصلها فى ذاتها وفى استدعائها لأفعال كلامية جديدة بحيث تضمن استمراريتها (وادي، 2007). ويشير ليو هوك (léo. hoek) إلى أن العنونة علامة لسانية تدرج على رأس نص لتدل على محتواه (hoek, 1981, p. 17) وهو من السيميائيين الذين أسسوا لعلم العنونة (titrologie) والذى يدخل فى عملية التأسيس الخطابى للنصوص الأدبية وبخاصة السردية من أمثال: جيرار جنات (G : genette) وشارل غريفيل (CH.Grivel) ولوسيان غولدمان (L.Goldmann) .

ويتأسس فعل العنونة فى الرواية حول ملفوظ "لبيك" والذى لا يؤدي وظيفته إلا من خلال نطقه، بمعنى أن فعل التلبية عن طريق النطق تحمل دلالة دخول الحاج فى الإحرام وانطلاقه فى رحلة قصيرة تتجلى فى جانبها الروحى الذى يرفع صاحبها إلى مدارج التوبة والقرب من الله، وفى جانبها المادى الذى يفعل الارتقاء الروحى تدريجياً عبر تأدية مناسك الحج . وأما عن قوله " حج الفقراء" فهو فعل تخصيصى لطبقة المحرومين والتي نأت، على فطرتها ووضعيتها الاجتماعية، عن مغريات الحياة

وزهدت فيها، وبذلك ارتقت لمستوى استجابة النداء الإبراهيمي (النداء العجيب على حد تعبير الكاتب) لأداء فريضة الحج، فهؤلاء هم من ارتقت أرواحهم وسمت لتحقيق فعل التلبية من جانبيه المادي والروحي، وفي الرواية ما يدل على ذلك من خلال قوله: "منذ ثلاثة عشر قرنا وفي كل سنة ينبجس النداء العجيب داخل أعماق النفوس، ليؤثر غالبا في البسطاء، فيستجيب الذين هم في أقاصي البلاد المسلمة" (بن نبي، لبيك حج الفقراء(دط)، 2009، صفحة 28)، ويمثل هؤلاء كل من عاش حال الحرمان والزهد في الحياة فتمثل له طريق السمو والارتقاء حتى يكون أهلا لفعل التلبية.

يحيلنا العنوان وفق هذا التصور إلى ما يكتبه مالك بن نبي عن حال الجزائريين الذين ضاقوا ذرعا بإكراهات الاحتلال وتبعاته من مظاهر الجوع والحرمان والفقر والاضطهاد مجبرين غير مخيَّرين، ولما قادوا المقاومة السياسية وفجروا الثورة المسلحة، استأنست أنفسهم لقيمهم ومبادئهم التي ورثوها عن أجدادهم، والتي تقديس تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وتغلّفه بطابع المعتقدات الشعبية التي تظهر في شكل سلوكيات ساذجة، وتبطن في شكل ولاء وافتقار للروحانيات، وهو بحق ما يؤديه ملفوظ "حج الفقراء" أي حج الروحانيين السذج..

2_ سيرورة السرد نحو المعنى:

تستجمع أحداث الرواية حكاية "إبراهيم"، وهو الاسم الذي يرتبط بأذان الحج ومناسكه التي في حقيقتها تمثل مسار سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام نحو تحقيق هدفه في تلبية أمر الله تعالى في ذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، وما يواجهه من عراقيل ووساوس الشيطان الذي يحاول عبر محطات متوالية فرض الهيمنة عن طريق الإغراء.

وإبراهيم شخصية نأت عن فطرتها وطبيعتها ثم عادت إليها بعودته إلى طريق الحق سبحانه وتوبته وتأديته فريضة الحج؛ يمثل إبراهيم "الجيل الذي احتك وعاش المجتمع الأوروبي في الجزائر حيث كان في حيرة من أمره، فكل ما تعلمه منذ الصغر وإن كان غائضا في أعماقه، فإنه يطفو على السطح ليتناسب مع أحاسيسه العميقة،

إنه الفراغ الذي يعانیه كل امرئ غير مقتنع بعقيدته ومقوماته الأخلاقية، لكنه استدرك الأمر وأدى فريضة الحج" (بن نبى، لبيك حج الفقراء(دط)، 2009، صفحة 18). ولذلك فإن الفراغ الذي يعانیه الفرد البسيط ليس متعلقا بسذاجته في علاقته بدينه بل ينشأ حينما يذود عن عقيدته وقيمه الروحية والأخلاقية ومن ذلك طريقة تفكير الفرد الشعبي البسيط في فريضة الحج وتقديسه لها.

تظهر إلى جانب "إبراهيم" شخصيتان فاعلتان في السرد: الأولى زوجته "زهرة" المرأة التي أدانتها ورفضته بسبب خوضه في المحرمات، وهي تمثل رمز المرأة الجزائرية التي تخضع للأعراف والعقيدة، والشخصية الثانية هي الطفل "هادي" الذي صلح حاله بصلاح ونقاء السفينة التي سارت بركابها قاطعة طريقا روحانيا رابانيا نحو البقاع المقدسة، فصلاح الأجيال يتحقق بصلاح المنهج السليم الذي يجتمع حوله الراشدون في المجتمع، وهو يمثل الجيل الصاعد الناشئ الذي تقوم عليه النهضة في كل مجتمع، أي: "رأس الحربة في كل عمل نهضوي"(بن نبى، لبيك حج الفقراء(دط)، 2009، صفحة 18). ومع هذا الجيل تتحقق آمال الشعوب وغاياتها النهضوية والحضارية، وينشأ وعي ثقافي يهيئ الفرد الاجتماعي لرفض حالات الانفلات والخضوع الثقافي وسلب الهوية.... وغيرها من المظاهر السلبية المدمرة للذات وكيونتها.

وأما على مستوى أسلوبية السرد، فقد ظهرت بساطة الكتابة ضمن المحتوى الحكائي، وكأننا بالكاتب يسترجع حكايات تراثية يفرج بها عن هم الفكر ويكسر بها قيود العقل؛ فحين أدى انتظام الملفوظ الفلسفي دوره في شرح وتبيان المسائل العقلية من خلال مؤلفاته الفكرية والحضارية، انفلت الملفوظ الأدبي عن النسق المعياري ليظهر عبارات الإحساس والشعور التي تشرح وتُجَلِّي علاقة الإنسان الجزائري البسيط بخالقه وطرق استيعابه لعقيدته وتطبيقه لمبادئها، ومظاهر التزامه الروحي بأركان الإسلام وفروضة؛ وعلاقاته بمن حوله في ضوء أعراف وتقاليد المجتمع الجزائري، ومنهج الدين الإسلامي في الوقت نفسه، يقول: "ماذا بعد يا إبراهيم؟ مرة أخرى ثملا؟ ألا تفكر أنك في هذه الساعة المتأخرة تزعم جيرانك المساكين؟ هل

تدري أنني اضطررت إلى قطع صلاتي حتى لا أدعك تصرخ طوال الليل تحت نافذتي... آسف عمي محمد، إنه مكتوب على الجبين، واللّه إنه مكتوب، آسف..." (بن نبي، لبيك حج الفقراء(دط)، 2009، الصفحات 32-33) لعل هذا المقطع المشهدي يشرح في بساطته وحواريته، علاقات اجتماعية خاصة تجمع أفراد هذا المجتمع الحكائي الذي تخدمه تجربة الراوي السردية وتوجهات مبدعه الأيديولوجية؛ وهو مجتمع تشوبه مظاهر الانفلات من الذات والتبعية للآخر من جهة (وهو ما يضمّره مشهد ابراهيم الذي يجاور رجلا صالحا ومع ذلك يأتي ثملا في ساعات متأخرة من الليل)، وتضبطه فطريا أعراف اجتماعية ودينية من جهة ثانية تنبني على حرمة الجيرة والاحترام والتراحم ...

ملأت الأجواء الإيمانية والروحية فضاءات السرد، والملفت أن بن نبي مزجها بروح الدعابة والمرح والتنكيث وهو ما يميز الفرد الجزائري الذي يرتبط بالتزاماته وروحانياته بكل عفوية وتلقائية، تلك روح الهوية الجزائرية في أصلاتها؛ يقول بن نبي راويا: "بعد أن مسحت العمة فاطمة يديها ووضعت السكين أرضا، أخذت تقبل المسبختين وتمررهما على وجهها الذي بللته الدموع" (بن نبي، لبيك حج الفقراء(دط)، 2009، صفحة 154). ويقول متحدّثا عن مؤونة الحجيج: "أما اليوم فالمؤونة اقتصرت على كعك وحلويات تحملها العائلات لحجاجهم، من البقلاوة الخاصة بالعائلات الغنية، والمقروض لقاطن المدينة والفقير، أما الرفيس فللريفي" (بن نبي، لبيك حج الفقراء(دط)، 2009، صفحة 102).

وأما الحوار فتشكل في النص عبر تداعيات التجربة الحضارية التي يطمح إليها مالك بن نبي، فكان حوار ثقافات أو حوار حضارات وعقائد مختلفة، كما تشكلت تحت ظل فكر الانتلجنسيا⁴ في التعايش وقبول الآخر بعقيدته وثقافته وتاريخه (هويته).

⁴-الانتلجنسيا: نخبة مثقفة تشارك في عمل ذهني معقد يهدف إلى توجيه ونقد، أو لعب دور قيادي في تشكيل ثقافة المجتمع وسياسته. وقد استعير المصطلح من جورج هيغل لوصف فئة متعلمة ومهنية من البرجوازيين الوطنيين الذين أصبحوا قادة روحانيين في بلد خاضع لقوى أجنبية. (https://ar.wikipedia.org)

ومن صور التحوار (التثاقف) في الرواية وهو ما يجمع الأشخاص على تعدد مستوياتهم وهوياتهم وعقائدهم وقومياتهم... ذلك التراحم الذي جمع الفئات المختلفة على متن مركب الرحلة، ومثله الحوار الذي تداوله الربان ومجموع الحجيج فيما بينهم، بحيث "لم يخل من إشارات الود والتفاهم على اختلاف المبادئ ووجهات النظر" (بن نبى، لبيك حج الفقراء(دط)، 2009، صفحة 20).

ومن أوجه التحوار الثقافي أيضا ذلك المشهد الذي جمع الحاج الجزائري المثقف، والبحار الفرنسي بحيث ارتقى مستوى لغة الحوار في النص في محاولة شرح الرؤى الأيديولوجية ومبادئ العقيدة في نظر كل منهما. يقول: "...ماذا يمكن للدين أن يبني لو فرضنا أن هناك دينا عالميا؟ أستطيع الآن أن أخبرك ماذا سيحصل، كنيسة عالمية تُخضع الشعوب وتقهرهم وتسلبهم ضمانتهم وأموالهم. قطع الحاج على البحار حديثه وهو يمدده بسيجارة: ...نحن نقول الشيء نفسه ولكن من منطلقين مختلفين، بتجريمك للأديان أنت تجرّم الاختلاف، اعتقد أنك تتهم التنوع اللغوي أيضا..." (بن نبى، لبيك حج الفقراء(دط)، 2009، صفحة 108). وهذا الحوار يمثل إمكانية التعايش الثقافي أو الحضاري دون الذوبان في الآخر وهو ما اشتغل عليه فكر المبدع في كل مؤلفاته.

خاتمة:

- وفي ختام هذا البحث نورد أهم النتائج التي توصلنا إليها وهي كالآتي:
- كتب المفكر الإسلامي مالك بن نبى حكاية ثقافية تخيلية لمجتمع باحث عن خصوصيته وهويته في ظل الهيمنة السياسية والثقافية الاحتلالية، واضعا حكايته ضمن أطر معرفية ثقافية واجتماعية، تجعل من الفرد الباحث عن تلك الخصوصية متمردا على الوضع المأزقي الذي فرض عليه، وباعثا لنور النهضة والصحة، مستعينا في ذلك بعلاقته الروحانية التي تربطه بخالقه وعلاقته بأفراد مجتمعه وأفراد مجتمعات ثقافية أجنبية .
 - تؤسس هذه الحكاية الثقافية الفكرية لمفهوم معرفي يخص مصطلح "المثاقفة- التثاقف" وهو فهم تأويلي (تضادي) للمعرفة العولمية .

قائمة المصادر و المراجع:

- أديب، بامية عابدة. (1982)، تطور الأدب القصصي الجزائري، (دط)، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية .
- بركات، درار أنيسة. (1984)، أدب النضال في الجزائر، (دط)، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- بن كراد، سعيد (2013). وهج المعاني، سيميائيات الأنساق الثقافية (ط1). الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي.
- بن نبي، مالك (2009).، لبيك حج الفقراء، ترجمة: زيدان خوليف، (دط). دمشق، دار الفكر.
- بن نبي، مالك (دت). شروط النهضة. ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، (دط) قطر، وزارة الثقافة والفنون والتراث، دار الكتب القطرية.
- الجابري، محمد عابد (1994). المسألة الثقافية، (دط) بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- جبور أمالخير. (2013)، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيونقدية، (ط1). الجزائر، دار ميلنشر .
- حنون عبدالمجيد (1986).، صورة الفرنسية في الرواية المغاربية (دط). الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية .
- خضر سعاد. (1967)، الأدب الجزائري المعاصر، (دط). صيداء، بيروت، منشورات المكتبة العصرية.
- ديب محمد. (1970)، الدار الكبيرة، ترالدكتور سامي الدروبي، (دط). الجزائر، روايات الهلال.
- الزعبي زياد(2007). منالصفراء إلى الشيفرة: المثاقفة وتحولات المصطلح النقدي، مجلة عالم الفكر، (العدد 1، المجلد 36، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- عبادة عبد اللطيف (1984)صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ط1، دار الشهاب للطباعة والنشر.
- الغذامي عبد الله. (2014). النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية (ط6). الدار البيضاء، المغرب بالمركز الثقافي العربي.
- مرتا ض عبدالمالك. (1983)، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، (دط)، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .
- المناصرة عز الدين 1996، المثاقفة والنقد المقارن- منظور اشكالي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر
- وادي جليل (الخميس 6 أيلول 2007). قراءة جديدة في مفهوم الخطاب عند فوكو، المدى الثقافي، (العدد 1033)، بغداد، جريدة تصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون.

الكتب الأجنبية:

_léo. Hoek. (1981) *La marque du titre: dispositifs sémiotiques d'une pratique textuelle*. Mouton. paris.